الخطاب الادبي وفاعلية الاختلاف – سلبية النسق وجينالوجيا القراءة

أ.د. اوراد محمد كاظم التويجري
جامعة بابل – كلية التربية للعلوم الانسانية
E-mail:
hum.awrad.mohamed@uobabylon.edu.iq

ملخص البحث

إن امتلاك اللغة سعة تعبيرية وحيوية في التمثيل ، تبرر إنحياز الخطاب الادبي التام لها ، لافي درجتها الصفرية التي تبقيها في حدود التداول المعياري الصرف ، إنما في إقامة علاقة تربط اللغة بالمعرفة الانسانية بهدف خلق منظورات تعي الجمال بدرجاته القصوى .

وذلك من اجل إحالة الخطاب الادبي - في ضوء معطياته الجمالية - ، الى مقاربة استثنائية قوامها تصوير الاشياء على نحو خاطئ (ملتبس) ، والإمعان في تضييق الحدود وتمويهها ، بهدف افتراض مقاصد دلالية غاية في المراوغة واللاإتزان ، بما يجعل السياق قائما على الاحتمالات والممكنات ، التي تسمه بـ (الانفتاح) .. الذي مثل قانونا جوهريا اسست له الشعرية الحدثية على الاطلاق .

وتبعا لفاعلية الخطاب الادبي في انتاج الاثر الجمالي ، يتجه البحث الى رصد التعارضات الاسنادية التي تتحاشى التصريح ، مما يترتب عنه تعالقات سياقية موغلة بتوترات وإرجاءات جعلت الخطاب رهين المغايرة والاختلاف .

إن الفاعلية التي ينتهي اليها الخطاب تمثل منعطفا مهما يؤول بسلبيته الى القارئ والاستيلاء على تجاوباته ، وذلك بتحطيم توقعاته (Expectations) فتكون مدعاة لترك أثرا ايجابيا وذلك باستدعاء آفاقه التأويلية لإنتاج قراءة تعي جماليات الاختلاف ومتعالياته النصوصية ، الذي سيكون المشغل الثاني من البحث وهو يتجه لتفكيك القراءتين التأويلية والتفكيكية .

Literary Discourse and Efficacy of Divergence - Negative Layout and Genealogy of Reading

Prof.Dr. Awrad Mohammed Kadhim Altwaijri
University of Babylon - College of Education for Human Sciences

Abstract

The possession of language of the capacity of expression and vitality in the representation, justify the bias of the literary discourse to it, not to the degree of default that keeps it within the purely normative circulation, but in the establishment of a relationship between language and human knowledge in order to create perspectives aware of beauty in its extreme.

Thus, literary discourse, in the light of its aesthetic data, turns to be an exceptional approach of portraying things wrongly (ambiguous), and further narrowing and disguising borders, with the aim of assuming very indicative purposes in evasion and unbalance, making the context based on possibilities, which is called (openness) .. which represented a fundamental law based on absolute eventive poetic.

Depending on the effectiveness of the literary discourse in producing the aesthetic effect, the research tends to monitor attribution contradictions that avoid the declaration, which results in contextual relations entrenched by tensions and postponements that have made the discourse subject to different and diverge.

The effectiveness of the discourse represents an important turning point that passes negatively on the reader and grabs his responses, by breaking his expectations so that they will have a positive impact by summoning his interpretive horizons to produce a reading that understands the aesthetics of difference and its textual transcendences.

key words:
Effectiveness of Divergence, Poetic Incidence, Assignment Heterogeneity, Nonspecific Sites, Interpreting and Deconstructive Reading

اتجهت الشعرية الشكلية – تأثرا بانجازات العلوم الطبيعية التي غزت العالم – الى استقراء النصوص بوصفها (نوعية – مفترضة) اقرب الى الطرح العلمي .

هذه الاجراءات مهدت الطريق لإعادة النظر الى الادب بوصفه علما مستقلا بذاته ، يتجه الى دراسة الخصائص النوعية التي تحقق الفرادة الاسلوبية لعمل ما (ينظر : إيخنباوم ، بوريس ، ١٩٨٢/ ٣٥ . وينظر : تودوروف ، تزفتيان ،١٩٨٧/ ٢٣) ، بمعنى أن موضوع العلم الادبي – وكما حدده باكوبسن – ليس الادب إنما (ما يجعل من عمل ما أدبيا) (ايخنباوم ، بوريس ، ١٩٨٢ /٣٥ ، وينظر قضايا الشعرية ، رومان ياكوبسن ، ١٩٨٨ /٣٥) ، منضويا الى البويطيقيا (الشعرية) .

غير ان بحث الخصائص التي تسبغ على العمل صفة الادبية لا يمكن الاحاطة بها الا من خلال الخطاب ، لان العمل الادبي ليس في ذاته هو موضوع البويطيقا ، انما ما تبحث عنه البويطيقا هو (خصائص هذا الخطاب النوعي الذي هو الخطاب الادبي) (تودوروف ، تزفتيان ، ١٩٨٧/٢٣) .

إن محاولة وضع تحديد لمفهوم الخطاب الأدبي يراعي جملة التصورات التي اتسم بها ، يوجب العودة الى التحديدات التي عمل النقاد على صياغتها ، مراعين ضرورة الاهتمام بالاستراتيجيات الشعرية التي بموجبها ينتقل السياق من درجة الصفر النصي إلى مستويات الاختلاف والتجريد التي تضمن الوصول الى ما اصطلحت عليه شعرية مابعد الحداثة بـ (اللاشكل) .

وعلى أساس هذا الفهم اتجه رولان بارت إلى تحديد الأثر ونمذجته في معادلة , مؤشرا طرفي المعادلة بثوابت ومتغيرات , انطلاقا من كون الطرفين مدركين فاعلين في منظومة الخطاب , فحسبه يختزل الشعر اعتمادا على رؤية منطقية (رياضية) , محددا مساحة الخطاب بالمعادلة الآتية : (ينظر : بارت ، رولان ، ١٩٨٠ /٥٨) .

الشعر = المعيار + أ + ب + ج + ...

تتشكل المعادلة الشعرية من المعيار وقيم اخرى مرموزا لها بـ : أ، ب ، ج .

قد يبدو للوهلة الاولى خلل المعادلة وعدم تكافؤ اطرافها ، لاسيما بوجود المعيار الذي إحتل طرفا بانيا في المعادلة ، على الرغم مما عرف عنه ميله الشديد الى المنطقية واستجابته التامة الى القاعدة .

إن تعزيز النص بقيم قواعدية تتسم بالثبات لا يعني انطباعا سلبيا يسيء للنص , أو ثمة تصالح بينه وبين نقيضته (اللغة الشعرية) . فالقيم الشعرية تسعى دوما إلى الانفلات من كل مايسمها بالمنطق وتحرير النص من (الصلات الداخلية التي تربطه بنقيضه) (كوهن ، جان ، ١٩٩٥/ ٧٣) .

ولعل مايؤكد ذلك اصطفاف الرموز (أ, ب , ج ، ...) طرفا ثانيا في المعادلة الشعرية ، مثلت قيما متغيرة مفارقة للطرف الاول (المعيار) وممثلة لخصيصة اللغة الشعرية في إزدراء مظاهر الانقياد والجمود ، والبحث عن الحقيقة الأدبية ، الامر الذي اباح لها مخالفة منطق العقل (المعيار) ومواجهته بالنقض ، والاستبدال ، والنفي ، وسوى ذلك من إمكانيات إستثنائية تؤهلها لتقييد حيادية القاعدة وإحالتها هامشا لاضرورة له . إذ تهيمن على الذاكرة التأريخية لحظتان وجوديتان تؤشران تحولا حقيقيا في بنيته الفوقية (الثقافة والفكر والادب) المتحكمة في بنى الانتاج والبناء ، الاولى بصفتها الخاضعة المستسلمة ، والثانية (بصفتها متمردة مارقة) (ادونيس ، ٢٠٠٢ / ١٧٧) ، ممسوسة بهوس البحث عن الحقيقة وتفكيك جينالوجيا الثبات .

في ضوء ما سلف يمكن القول ان الخطاب – في ضوء المعادلة البارتية – يتضمن في جوهره رسالة تخضع لاشتراط (الالتزام والعصيان) في الآن ذاته ، فهي تنطلق من معطيين مهمين :

١- خطاب المنطق (قيم المعيار) الذي مثل وجودا راسخا إطمأن له السواد الاعظم واعتكز عليه بحفاوة الالتزام والاعتراف بسلطة خطابه وصوابها ، وهو في إعترافه – هذا – يضمن للسلطة المعيارية الديمومة ، مقابل تقديمها ضمان الاسترخاء لعقله المدجن ، واقتراحها اسلم الطرق وادقها في التفكير والانتاج ، بل وان تتكفل بمهمة التفكير نيابة عنه .

٢- الخطاب المفارق (قيم الاختلاف) ، الذي يعمل بقوى مضاعفة ، لا من اجل نقض المنطق بتمامه ، فالوجود يمتلك من المقبولية مايجعل محاولة الغائه تماما ضربا من المحال ، إنما من اجل انتاج ادوات للعمل ومنهج في التفكير مهمتها (التحويل او التغيير) (الزواوي ، بغورة ، ٢٠٠٠ / ٢٦٠) ، وخلق حساسية تشعر باستهلاك النسخة الحالية (الانموذج المقدس) والايمان بضرورة التغيير وبناء انموذج متعال يتميز بـ (امتلاء وثراء لاحد لهما) (فوكو ، ميشيل ، ١٩٨٧ /١١٠) .

وهكذا فان الخطاب الادبي في ضوء – جينالوجيا البويطيقيا - ، يمثل عملية إنتاجية ، تعيد توزيع النظام المعياري (اللسان) عن طريق ربطه بالكلام (ينظر : كرستيفا ، جوليا ،١٩٩١ /٢١) ، وتنزع الى بناء علاقات سياقية مهمة تتلخص بالآتي : (ينظر : بارت ، رولان ، ١٩٩٣ /٢٨ . وينظر : كوهن ، جان ، ١٩٩٥ /٧٣)

- علاقته بعمليات الاستبدال القائمة على مبدأ الاختيار ، الكفيلة بانتاج القيم الدالة ذات الخصوصية النسقية التي تهدف انتاج المستوى الجمالي .
- علاقته بعمليات التأليف القائمة على مبدئي التنظيم والتوزيع ، الكفيلة بإنتاج التعالق النسقي السلبي ، وهذا مدعاة لإنتاج المستوى التأثيري الذي يمارس الإكراه على انتباه القارئ .

في ضوء ما سلف يمكن تحديد الخطاب الادبي بانه ملفوظ متخيل يشترط تمثيله الخضوع لظروف إستبدالية وتأليفية تلفظية خاصة به .

ففي المستوى الجمالي لايفارق قانون الانتهاك الذي مثّل اصلا متجذرا في اللاوعي الجمعي للذاكرة التخييلية التي تتيح له الظهور بتجليات إستثنائية تتقن الاحتفاء باللغة على نحو مختلف يسبغها بفاعلية الانفتاح والتنوع .

اما في المستوى التأليفي فان تصعيد حالة اللاإحتمالية واللاتوقعية التي يعيشها القارئ اثناء تجاوبه مع البنى السلبية ، من شأنها إفساد نظام توقعات (expectations) القارئ بالعلاقة مع شفرات اللملفوظ من جهة والشفرات الثقافية (ينظر : محمد ، اوراد ، ٢٠١٣ / ١٣٧) . من جهة أخرى .

وهو في كل من المستويين يكون خاضعا لإشتراطات البويطيقا في نقض ميتافيزيقيا الانموذج المقدس ، وقيامة الممنوع من عزلته ليكون له السبق في النبوءة والخلق ، وارتياد المغامرة في المجهول ، ليرتقي الى فضاء المغايرة والاختلاف وامتلاك ارادة القوة ، اللذين يمثلان جوهر الحقيقة الشعرية .

إن محاولة الخطاب الادبي انتاج سلبية نسقية , يوجب ابتكار قوانين تتسم بالخصوصية ، شأنه شأن العلوم الاخرى التي نشأت في العالم الكوني (الكوزمولوجي) ، فمن المسلمات التي لا تقبل الجدل إبتداع كل علم او حقل لغة تشفيرية خاصة به . وهذا ماسوغ للادب سن لغة شعرية يستحيل معها إبداعا يغامر(صوب المجهول) (تاوريريت ، بشير ،٢٠١٠ / ٥١٧) ، جاعلا من اللغة المعيارية اساسا رئيسا لابوصفها وسيلة تقف عند حدود الاخبار ، او التبليغ عن موضوع محدد ومعروف مسبقا ، إنما يتجاوز طبيعتها الحيادية ، ويستدعي لامتناهياتها الاشارية التي تبيح له نمذجة العالم وإحالة معطياته (المحسوسة الى نظام) (لوتمان ، يوري ،١٩٨٨ /٦٤) .. إنطلاقا من كونها تمثل الآلية الاولى في التمثيل الثقافي لكل امة (ريكور ، بول ، ٢٠٠٦ /٤١)، بما تبيحه من إمكانيات السمو الى متعاليات لسانية تطمح الى كل ماهو جديد يثري السياق بمعطيات (مفتوحة للكلام) (فوكو ، ميشيل ،١٣/٢٠٠٧) .

وبالإمكان اقتراح خطاطة (استلهمنا المرتسم من المقترح الياكوبسوني لوظائف اللغة الست ينظر: ياكوبسن/٢٨. غير أننا إقتصرنا على العناصر المنشغلة في تحقيق التخييل الأدبي , انطلاقا من كون التخييل هو القانون المهيمن في اللغة الشعرية) ، تحيط بمرتكزات الخطاب الادبي الذي يمثل ملفوظا متخيلا قائما على مبادئ اللغة الشعرية ابتداء من الاختيار والتوزيع وانتهاء الى التنظيم والتأليف ، متخذا من المرسل (Addresser) والمرسل اليه (Semitic) والمرسلة الملفوضية مرتكزات مؤسسة للواقعة الشعرية :

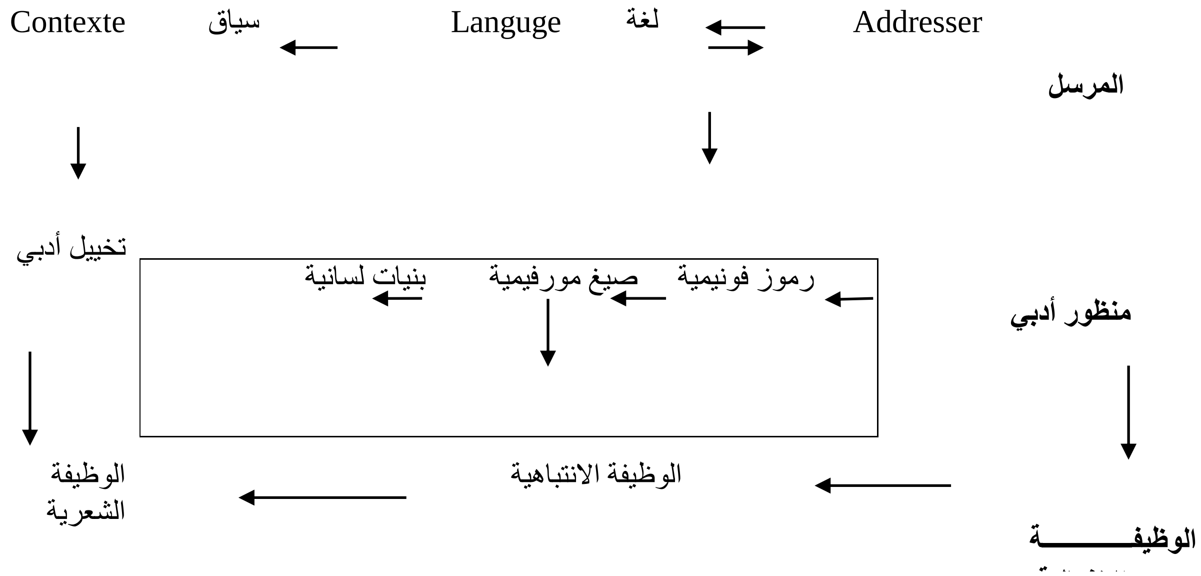

تنطلق الخطاطة من قاعدة نظرية لا مناص من توافرها في اي خطاب ادبي وهي بمثابة قاعدة تأسيسية تفضي الى تشريع ثلاث وظائف تضمن استكمال قوانين اللغة الشعرية , وتتحدد ماهية كل وظيفة اعتمادا على السمة التأسيسية التي تختص بإنتاجها .

ويحدد المخطط مسار عملية الإبداع التي تدشن تجربتها بالمنشئ وما يمتلك من ملكة تخييلية تعينه على تذويت اللغة بما يتلاءم مع رؤاه وافكاره التي ينبغي عليه ان يطرحها على نحو يخترق ميتافيزيقيا الحضور ويحقق الاختلاف .. لاسيما أن فاعلية الاختلاف الذي -ينبغي ان - يتميز بها المرتكز الثالث (السياق) ، تتوقف على خصوصية ملكة التخييل وسعة الملكة اللغوية . وصولا الى استدراج المرسل اليه وإثارته .. الذي يمثل المقصد الاساس من عملية الابداع برمتها .

إن الخوض في جماليات الشعرية يفضي الى تحديد مسار الإبداع عامة ، إذ إن وجود الصور التخييلية في معناها الاوسع يوازي وجود الخطاب (ينظر : تودوروف ١٩٨٧/ ٢٨) فهي ناتج أو تشكيل نهائي لعملية معقدة وشاقة ، عن طريق إدماج الماضي بالحاضر والمستقبل بسياقات ملفوظية تمارس فعالية تعبيرية لا تعترف بالبنى في حالة الثبات إنما بتلك الناتجة عن الاستثناءات التخييلية التي تولد خارج حدود العقل ، بما يتوجب إقصائها بعيدا (عن معناها العادي) (ادونيس ،٢٠٠٥/ ١٥٧) .

وذلك – بالطبع - حصيلة نتاج مسيرة طويلة ومعقدة تؤديها آليات الشعر ، ليأخذ تحول المداليل المسار الآتي :

س (دال) ← تصور (مفهوم) ← تخييل

لقد بات من اللازم –إذن- رصد المسافة التي تخضع فيها الآلية الشعرية للنقض والانتهاك الذي ينم عن تخطي المدلول التداولي (الواقعي) والكشف عن المدلول(المتخيل) .

وهذا يستلزم –اولا - تحديد العلاقة اللامنطقية الناتجة عن الآلية التركيبية . إذ إن الانتهاك المتحقق على المستوى الدلالي يتناسب تناسبا طرديا مع الانتهاك التركيبي .

وهكذا فإن الاستقراء لا يرصد البنى التركيبية عينها , إنما يركز على العلاقات السلبية المتجلية عنها , كونها المسؤولة عن انتاج المعنى الجمالي (المتخيل) . وهو ما سبق إليه عبد القاهر الجرجاني في بحث بلاغة الخطاب القرآني من منظور النحو المعياري , إذ قرن بين (النظم) و (علم النحو) ، مؤكدا الأهمية الاستثنائية التي إنماز بها علم النحو من حيث تمتعه بـ (القوانين النحوية والمعيارية التي تحدد حدود الصواب وحدود الخطأ في الكلام) (ابو زيد ، نصر حامد ، ١٩٩٦/ ١٦٢) .

وقد اقتفى كوهن أثره – بعدئذ- في التأسيس للشعرية الوظيفية التي تهدف الى الكشف عن الانزياح الذي يستأثر بمركزية جمالية تخوله الحد من سلطة النحو وتضييق اشتغاله الوظيفي .

إن الخصوصية التي تمتعت بها الميثالوجيا الشعرية في إسناد أشكالها قوة ايحائية تنأى بها بعيدا عن حدود النحو وخاصياته التجريدية ، استلزمت تنامي الدعوة الى ضرورة دراسة خصوصية المظاهر اللسانية في الشعر بالاعتماد على النزعة العلمية الممنهجة ، وهو ما اتضح في جهود بعض النقاد ، من ذلك – مثلا - دراسة رولان بارت التي دعا فيها الى ضرورة ربط (العلم الاكثر صرامة بعالم الابداع) ، ويوري لوتمان الذي أيد دراسة (الوظيفة الشعرية للمقولات النحوية) (ياكوبسن ، ١٩٨٨/ ٧٩) .. وغير ذلك من الدعوات النقدية التي اوجبت استحداث معيارية للشعر محايثة للنحو عرفت بـ (نحو الشعر Grammar Poetic) ، تؤسس لمنظومة تنطلق من جاهزيات النحو ، غير انها لاتعدم التخلي عن منطقيته الصارمة واجتياز حدوده المصطلحية الممنهجة ، بما يضمن التأسيس لمصطلحات اكثر محايثة لرؤى ومقتضيات الشعرية الحديثة ، نحو – على سبيل الاستشهاد - تجنب مصطلح النحوية واعتماد مصطلح (الملاءمة الدلالية) (كوهن ، جان ، ١٩٨٦/ ١٠٦) ، ومصطلح (منطقية الجملة Logicity) الذي يقابل مصطلح (نحوية الجملة) ، و مصطلح (لامنطقية الجملة Alogicty) المقابل لـ (لانحوية الجملة) ، وكذلك – ايضا - (الجملة الايحائية) المقابلة لـ (جملة المطابقة) (كوهن ، جان ، ١٩٨٦ / ٢٠٤- ٢٠٥) و(القافية النحوية) المقابلة لـ (القافية النحوية المضادة) التي لاتهتم بالعلاقة بين الصوت والبنية النحوية (ينظر : ياكوبسن ، ١٩٨٨/ ٧١) ، مع تشديد ياكوبسن على تجنب نعتها بالقافية اللانحوية .

إن الفاعلية الاسنادية وهي تعضد السياق بمتواليات لسانية لفظية – وغير لفظية – نسقية تتآزر لمفارقة القاعدة التي اكتسبت شرعية لسانية ، لتبلغ اعلى مستويات التميز اللاإحالي ، وهي تمسك بطرف من المداليل النصية وتترك الآخر من غير إحالة الى مرجعية محددة له - او شيئا من ذلك - ، وهي غالبا ما صنفتها الرؤية المعيارية الموروثة (كأطراف غير موجودة) (كرستيفا، ١٩٩١ / ٧٦) ، تقع خارج تبعيتها .

إن خروج هذه الاطراف من تبعية النظام المعياري الثابت الذي يرى بان وجودهم لاوجود له ، لهو دليل على مغايرتهم واختلافهم ، وذلك لانتظامهم بسياقات إسنادية مموهة لا علاقة لها بالحقيقة ، وذلك هو ما يمثل – بحق - ثقافة التأثير التي تمثل طموح اللغة الشعرية الفذ .

إن قانون نقض الاتباع الذي تخضع له الآلية الإسنادية يفضي إلى تكثيف فضاء دلالي لامناص من خضوع النص لمستوييه .

إن الاختلال واللاتلاؤم الظاهر بين المتواليات النصية يماثل مستوى الوعي الذي يشغل حيزا محدودا في النفس الانسانية وهو غير مسؤول عما يعقده الانسان من قرارات ، وقد حددها النقد بـ (علامات الحضور) ، وهي تمثل المستوى الاول من التجربة الشعرية ، الذي لا تتضح فيه سوى البنى المتعارضة التي تثير الاحساس بعدم الملائمة ، بما يستدعي البحث عما يبدد ذلك التعارض ..

والحقيقة ان التشتيت البنيوي الذي يوحي بأن (لاقصدية) من وراء ذلك كله ، يمثل جوهر الادب ، إذ إن فقدان الاحساس بوجود رابط يصل الانساق - التي تقترب من اللاشكل - عند بنية مركزية محددة ، يمثل (قصد) شعرية مابعد الحداثة .

غير أن (اللاقصدية) المفتعلة لا تمكث الا قليلا ، فهي ليست سوى حلقة تفضي الى مكمل دلالي اكثر اهمية يتوجب عليه إعادة النص إلى توازنه وتلاؤمه عقب السلبية والجدل الذي اثارته لاقصدية علامات الحضور .

أما المستوى الثاني فقد حدد بـ (علامات الغياب) ، او ما عبرنا عنه بـ (مستوى اللاوعي الشعري) الذي يعد متمما لمستويات التجربة الادبية ، ويقع على عاتقه التأسيس لرؤيوية النص بدلالات لا تخلو من البعد الجمالي .. الذي يمثل روح النص وسر وجوده .

بيد أن ذلك لا يعني ثمة افتراق او تنافر بين البنيتين الحاضرة والغائبة / (الواعية واللاواعية) ، فتماسكهما مثل قانونا فرضته لغة الخطاب الادبي على المنشئ , بان يجعل الأولى دليلا الى الثانية , مع احتفاظ كل من البنيتين العلاميتين باستقلالية لا يمكن إنكارها .

إن التماسك غير المرئي الذي يصل البنيتين لا يخضع له المنشئ فحسب ، بل المتلقي كذلك ، إذ شكل الاخير محورا مهما في انتاج الخطاب ، وكان دافعا لإنتاج نظرية انطلقت في الاساس من أحقية مشاركة القارئ في إنتاج النص ، وفاعلية أثره في عملية الفهم وانتاج المعنى . فهو معطى ثقافي اكتسب حضورا متعاليا ، تمثل في وعيه بضرورة التغيير ، ونبذ الانظمة التقليدية ، إذ إن تفاعله مع المقروء لا يقف عند حدود (تجربة المعنى فحسب ، بل تجربته كذلك) (محمد ، اوراد ، ٢٠١٣ / ٣١) ، وهو يتجه للتماهي مع النص ، مقيدا المثيرات ، والاكراهات ، والتوقفات ، والمنع .. وسوى ذلك من موجهات مؤدلجة تحف بالخطاب وتسعى الى التسلل الى فهم القارئ لاستدراجه والإيقاع به .

ان ضبط عملية القراءة تحتم على القارئ ضبط مساره التأويلي بمستويات استقرائية عديدة ، يتمكن من خلالها الالتفاف على ما يشيعه السياق من فجوات تجهد القارئ وتقطع عليه طريق الوصول الى المعنى . إذ يأخذ القارئ وهو يتنقل بين مستويات القراءة الى تقنين تجاوباته ، وترسيم حدود النص ، بما يمكن وجهة نظره الجوالة من الاسترسال في لامتناهياته الملفوظية وفرض ارادتها بوصفها قوة لها القدرة (على التأثير في قوة اخرى) (دلوز ، جيل ، ١٩٨٧ / ٧٩) ، والاستحواذ على بنياتها الاستراتيجية .

في ضوء ماسلف يمكن القول أن المعنى لا يمكن استحصاله بيسر إنما يتطلب الامر مرور الفهم بمستويين قرائيين هما :

- مستوى القراءة التأويلية
- مستوى القراءة التفكيكية

إذ تشغل القراءة التأويلية زمنا محدودا يتضمن تأشير البنى المثيرة للجدل (البنى الحاضرة) التي تتعمد التلفيق والمراوغة والإيهام وإشاعة اللاقصدية ، بدافع وصم النص بالفوضى والاضطراب وربما احيانا بالجنون ، مما يدعو الى تدخل قوة ثانية للحد مما اشيع من خلخلة للنظام . وهكذا توشك القراءة التأويلية على فقدان جاذبيتها ، الامر الذي يضطرها الى الانزواء وإخلاء الطريق الى القراءة التفكيكية التي تتسم بالعمق والشمولية ، إذ تتجه الى ردم الفجوات والفراغات التي أشيعت عقب الفوضى التي أحدثها التدليل اللاإحالي (البنى الحاضرة) .

تحتل القراءة التفكيكية بحكم سمتها الجينالوجية سلطة إجرائية تؤهلها الى الغوص بعيدا في لاقصدية الحضور الذي لم يتوان في تمويه السياق وتزييف الحقيقة .

وتشكل (مواقع اللاتحديد) الخطوة الحاسمة والضرورية التي تتجه القراءة التفكيكية الى الاستغراق في حفرياتها ، وتأمل بياضاتها ، وصولا الى الامساك بالدلالات وانتاج مقاصدها التي وجدت من اجلها ، وهي بذلك تعيد الاعتبار الى الخطاب وتثبت كفايته التعبيرية والتأثيرية على حد سواء .

إن خلخلة التجاوب الذي يثيره الإسناد في زمن القراءة التأويلية إثر إقتصار دورها على تأشير لاقصدية الحضور فقط ، هو ضرورة لإشاعة اللامنطقية التي تنشأ من مواقع اللاتحديد ، الذي يوجب الإستعانة بالقراءة التفكيكية بهدف فك التساؤلات التي تثيرها القراءة التأويلية . فالخطاب لا يفتأ يبحث عن جمالياته في البنى الملتبسة التي يغيب فيها المعنى ويتلاشى التحديد ، لافي البنى القريبة او الواضحة .

ومن هنا فثمة أهمية بالغة في التماسك البنيوي بين القراءتين , فهو وإن كان غير محسوس ، لكن تراتبية القراءة إبتداء بتحديد القراءة التأويلية الشكل الظاهري واستحالته الى اللاشكل الناشئ من لاقصدية الحضور ، ثم انتهاء القراءة التفكيكية بالوقوف على مواقع اللاتحديد ، تكشف عن وجود تماسك تأويلي لايمكن إنكاره ، وهو لايقل اهمية عن التماسك البنيوي بين الدلالتين النصيتين ، وهما تستدرجان القارئ للتوغل في فراغاتها ، بما يثير أفقه التأويلي ، وحثه على

الوصول الى تأويل يؤشر البياض ويسوغ الانقطاع الظاهري الذي اشاعه السياق ، وتقديم قراءة يصف فيها سلبية النسق بلاإنسجاماته المفتعلة ، ويكشف عن مقاصده الحقيقية ، وهي – بحق – مقاصد يتجه لها الخطاب الادبي بوعي تام . وهكذا تستمر منظورات التأويل الجوالة في تفكيك كل تناقض غير مشروع وايجاد صيغة مقنعة لتقبله والاعتراف باختلافه وتفرده الذي وجد من اجله.

إن الطريق المتعرج الذي تقطعه تجربة القراءة بمستوييها بما يحقق الاكتفاء من التأويل والتفكيك ، يتحقق بفضل مايتمتع به القارئ من ملكة تأويلية . تسهم في الاقناع بشرعية النص ومايتبع ذلك من تأييد وتفاعل وتعليق على ستراتيجياته بوصفه عملا إبداعيا لايتحقق حظوره التام إلا بإستكمال مستوييه الجمالي والتأليفي معا .

إن اللاتحديد الذي يرجئ الدلالة يطبع الخطاب بوقائع لإحالية يصعب تمييزها من الوهلة الاولى ، لما تكتنزه من طاقات المنع والاكراه والتحريم والقطيعة ، بهذه الرؤية تتجلى الواقعة الجمالية في ابهى صورها لأنها (ذات طبيعة ميتالغوية) (بارت ، رولان ، ١٩٩٣ /٦٩) , ولعل هذا ما دفع صموئيل ليفين إلى اشتراط مقدار من التنسيق و التأليف ، ومقدار من الإيحاء والغموض (ينظر : ليفين ، صموئيل ، ١٩٨٩ /٩٤) ، وهو مايتحقق – بوضوح - في البنى المجازية والرمزية التي تعضد السياق ببنى إسنادية قائمة على النقض والانتهاك ، بما يمنحها سمة الاختلاف التي تكسب الخطاب الغنى والتنوع وتجعل من خصوصيته الادبية إبداعا مشحونا بالثراء والتجدد .

وتبعا لما مر آنفا يمكن القول ان الخطاب يمثل في الاساس (جملة سياقية) (الشهري ،عبد الهادي بن ظافر ، ٢٠٠٤ / ٣٨) ممتدة ، لاتقف عند حدود البنية اللسانية ، إنما هو بنية شمولية تتدخل في انتاج النصوص بحسب مقتضيات سياق الخطاب .

ان مرور البحث عند المرتكزات الثلاث : المنشئ والنص والقارئ تؤكد حتمية هذه المرتكزات وضرورتها مجتمعة ، ولايمكن التضحية بأحد منها مهما كان امر التضحية .

هؤلاء الثلاثة يشكلون – عضويا- حلقة متماسكة متآزة ، أحدهم يفضي – لامناص - الى الآخر ويؤدي اليه ، فما يبدأ به المنشئ ينتهي اليه القارئ :

المنشئ　　معيار　　لامعيار / الشكل　　اللاشكل ←
القارئ　　لامعيار ← (مواقع اللاتحديد) ← معيار (انتاج المعنى) ←

يمثل (النص) كينونة تواصلية ماكان لها أن تظهر لولا مخيلة المنشئ ومنظور القارئ مجتمعين، إذ يمثل – النص- الحلقة التي يتضامن كليهما من اجل سكها ورصها وانتاج مادتها التأثيرية .

تبعا لما سلف يمكن القول ان الخطاب فضاء سياقي ممتد ، لايتراءى عضويا الا في ضوء تماسك العلاقة القائمة بين تخييل المنشئ وسلبية النسق وجينالوجيا القارئ .

ان الاعتراف بشرعية المرتكزات الثلاثة ، وحتميتها في انتاج الخطاب ، يدفعنا الى التفكير في جدوى انتاج نظرية تجتمع فيها المرتكزات الثلاثة ، بدلا من استدعائها منفردة او متفرقة في نظريات اومناهج منفصلة ، نحو ماانتجته مرحلة الحداثة او مابعدها . ولعل محاولات المرحلة الادائية (بعد مابعد الحداثة) في استدعاء الاقطاب المتنافرة او المتعارضة والتفكيرعمليا في امكانية استبعاد كل مايثير التعارض والبحث عن مشتركات من شأنها ان تضمن الهدوء والتماسك ، يبيح ماندعو له ، بل ان التأسيس لنظرية شمولية في الادب ، يعد خطوة محورية تمهد الطريق لإمكانية تطبيقها في حقول معرفية مجاورة .

فضلا عن الدعوة الى العودة الى البحث عن جماليات الخطاب التي تلاشت وسط المبالغات المنهجية التي اتجهت بالحاح منقطع النضير الى تفكيك السياقات الخارج نصية ، مع ان مايبعث على إثارة تجاوبات المتلقي يكمن فيما يتضمنه النص من مؤثرات جمالية وتخييلية على وجه التحديد !!!.

مصادر البحث

- أبو زيد ، نصر حامد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ،-ط٤، ١٩٩٦.
- ادونيس ، موسيقى الحوت الازرق ، ادونيس ، دار الآداب – بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٢ .
- ----- ، زمن الشعر ، دار الساقي ، ط٦ ، ٢٠٠٥ .
- ايخنباوم ، بوريس، نظرية المنهج الشكلي ، ضمن كتاب : نظرية المنهج الشكلي (نصوص الشكلانيين الروس)- ترجمة : إبراهيم الخطيب - مؤسسة الأبحاث العربية (شوران) - بيروت - ط١- ١٩٨٢ .
- بارت ، رولان، درجة الصفر للكتابة ، ترجمة : محمد برادة ، دار الطليعة ، بيروت والشركة المغربية للناشرين المغربيين ، الرباط ، ط١ ، ١٩٨٠ .
- تاوريت بشير، الحقيقة الشعرية دراسة في الاصول والمفاهيم ، دار الكتب الحديث ، ط١ ، ٢٠١٠ .

- تودوروف ، تزفيتيان ، الشعرية ، ترجمة : شكري المبخوت ورجاء بن سلامة ، دار توبقال للنشر ،المغرب ، ط١ ، ١٩٨٧ .
- دلوز ، جيل ، المعرفة والسلطة - مدخل الى قراءة فوكو ، تر : سالم يقوت ، المركز الثقافي العربي – بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٧ ,.
- ريفاتير ، ميكائيل ، معايير تحليل الأسلوب ، ترجمة : حميد لحمداني - منشورات دراسات سال،- ط١، ١٩٩٣ .
- ريكور، بول ، نظرية التأويل وفائض المعنى ، تر: سعيد الغانمي ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، بيروت ،ط٢ ،٢٠٠٦ .
- الزواوي ، بغورة ، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو ، المجلس الاعلى للثقافة ، الكويت ، ٢٠٠٠.
- الشهري ، عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب - مقاربة لغوية تداولية ، دار الكتاب الجديد ، ليبيا ، ط١ ، ٢٠٠٤.
- فوكو ، ميشيل ، حفريات المعرفة ، تر : سالم يفوت ، المركز الثقافي العربي – بيروت – لبنان ، الدار البيضاء – المغرب ، ط٢ ، ١٩٨٧ .
- ----- نظام الخطاب ، تر : محمد سبيلا ، دار التنوير- بيروت ، ٢٠٠٧ .
- كرستيفا ، جوليا ، علم النص - ترجمة : فريد الزاهي - مراجعة : عبد الجليل- دار توبقال – الدار البيضاء - المغرب ، ط ١ ، ١٩٩١.
- كوهن ، جان - بنية اللغة الشعرية ، ترجمة : محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال ، المغرب،- ط١ ، ١٩٨٦ .
- ------ اللغة العليا /النظرية الشعرية - ترجمة وتقديم وتعليق : د. احمد درويش - المجلس الأعلى للثقافة ،١٩٩٥ .
- لوتمان ، يوري ، مشكلة المكان الفني ، تر : سيزا قاسم ، ضمن جماليات المكان ، جماعة من الباحثين ، عيون – الدار البيضاء ، ط٢، ١٩٨٨ .
- ليفين ، صموئيل ، البنيات اللسانية في الشعر، ترجمة : محمد الولي والتوزاني خالد ، منشورات الحوار الأكاديمي ، دار الخطابي ، مطبعة فسقالة،١٩٨٩ .
- محمد ، اوراد ، ستراتيجيات القراءة السردية في التراث العربي ، امل الجديدة – سورية – دمشق ، ط ١، ٢٠١٣.
- ياكوبسن ، رومان - قضايا الشعرية - ترجمة : محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، ط١ ، ١٩٨٨ .